

الأديب توفيق زيّاد

الخطاب الوطني في شعر توفيق زيّاد

جميل كتاني

1-1: محطات هامّة في حياة توفيق زيّاد:

- ولد توفيق أمين زيّاد في مدينة الناصرة يوم السابع من أيار من عام 1929م لأبوين كادحين. الأب إنسان عصامي. توفي والده منذ الصغر فاضطر للاعتماد على نفسه في كل شيء. حرص على إكمال تعليمه بدون توقف. وكان أحد القلائل الذين أنهوا الدراسة الموجودة في الناصرة بكل مراحلها. سافر إلى الشام وتعلم مهنة التمريض لمدة ثلاث سنوات. كان حلمه أن يصبح طبيباً، لكنّ الظروف السياسية والاقتصادية عطّلت برنامجه.

- بعد نكبة الشعب الفلسطيني وقيام دولة إسرائيل 1948/5/15 كان توفيق زياد الشاب وبقية أفراد العائلة من أولئك الناس الذين تشبّثوا بأرض الوطن، ورفضوا أي تفكير في الهرب والرحيل. وقد انضم، في هذه الفترة، رسمياً إلى صفوف الحزب الشيوعي .. الذي كان همّه الأساسي آنذاك التصدي لعمليات الترحيل.

كان من الطبيعي لشاب وطني صادق وواع وواضح الرؤيا مثل توفيق زياد أن ينخرط في صفوف هذا الحزب، ويتصدر معاركه ويتبوأ المراكز القيادية فيه. ولقاء ذلك يدفع ثمنا باهظاً؛ أحياناً لقمة الخبز وأحياناً أخرى بحجز حريته، ودائماً على حساب صحّته وراحته.

- نشط توفيق زياد في العمل النقابي سنوات طويلة حتى مطلع الستينات. شارك في المؤتمر الثالث لاتحاد النقابات العمالي في النمسا، وكتب العديد من المقالات في "الاتحاد" عن أوضاع العمال في إسرائيل، والعمال العرب بشكل خاص. كرس نقاشه في المؤتمر الثالث عشر للحزب الشيوعي الإسرائيلي لقضايا العمال العرب وأوضاعهم القاسية جداً.

- في سنة 1954 نجحت المعركة لإجراء انتخابات بلدية في الناصرة، ورُشح توفيق زياد في المكان الثاني في "القائمة الشيوعية وغير الحزبيين"، وفازت الكتلة بستة مقاعد من مجموع 15 مقعداً. في الجلسة الأولى (1954/7/1) رُشح لرئاسة البلدية رفيقه القائد الشيوعي المحبوب فؤاد جابر خوري بالأغلبية الأوتوماتيكية.

- كان توفيق زياد، إلى جانب نشاطه الواسع، محباً للعلم والدراسة. ففي آب 1962 استقال من عضوية البلدية وسافر إلى الاتحاد السوفييتي، حيث درس في المدرسة الحزبية الفلسفة والاقتصاد الاجتماعي. وهناك تجلّى الإنسان صاحب العرفان، الذي قدّر للاتحاد السوفييتي ما يعطيه لشعوب العالم من مساعدات باستضافته عشرات ألوف الطلبة الجامعيين وبتقديمه المال والغذاء والسلاح والدعم السياسي لمعظم الدول الفقيرة وحركات التحرر الوطني. وبُهر بما يقدمه هذا البلد من دعم للفن والأدب وصيانة التراث وتمجيد المقاتلين ضد الوحش النازي. ودوّن كل هذا في كتاب أسماه: "نصراوي في الساحة الحمراء"، كُتب بأسلوب شاعري، لكن بصدق الإنسان الطيب المستقيم.

- في سنة 1966 تزوج توفيق زياد من رفيقة دربه نائلة يوسف صباغ وهي من عائلة شيوعية عريقة. وكان زواجهما حدثاً صارخاً في حياة المدينة. فهو من عائلة مسلمة، وهي من عائلة مسيحية. وقد تم الزواج برضا عائلتهما، وأقيم لهما عرس رسمي¹.

2-1 أحبّ توفيق زياد عمله السياسي ونضاله القاسي وأعطى له جلّ وقته. لكنه أحبّ الإبداع الأدبي أكثر، خصوصاً أنه رأى في شعره أيضاً وسيلة نضالية. فقد تناولت معظم قصائده قضايا شعبه الوطنية، وعبّرت عن هموم هذا الشعب في حياته اليومية، وعكس فيها موقفه الطبقي والأممي. وعناوين قصائده تدلّ على ذلك: "شيوعيون"، "إلى عمال موسكو"، "أمام ضريح لينين"، "مصر 1951"، "إلى عمال آتا المضربين"، "من وراء

¹ لمعلومات مسبقة عن حياة الشاعر انظر: جميل كتاني، اللغة التحريضية لدى توفيق زياد، ص 201.

القضبان"، "ضرائب"، "كوبا"، "بور سعيد"، "ادفنوا أمواتكم وانهمضوا"، "تلج على المناطق المحتلة"، "كفر قاسم"، "رمضان كريم"، "مرج ابن عامر"، "شهداء الحرية"، "أناديكم"، "عمّان في أيلول"، "حبيبي أم درمان" و "إبي نتان".. إلخ.

وقد كان الخطاب المباشر في قصائده بارزاً لدرجة جعلت بعض النقاد يرونه نقصاً في الأداة الفنية والصورة الشعرية. إلا أنّ ذلك لم يقلل من اعتباره مبدعاً أصيلاً، بل أحد كبار الشعراء العرب، وأحد أبرز شعراء المقاومة. فإذا كان الشعر فنّاً مجرد الفنّ، فإنّ توفيق زياد لم يكن شاعراً متألقاً. لكن، إذا كان الشعر تعبيراً جمالياً وغذاء إنسانياً وموسيقى راقية وأداة كفاحية ورأياً حرّاً وفكرة إبداعية، فإنّ توفيق زياد كان شاعراً ممتازاً. فكم بالحري إذا كان شعره سهل الحفظ للناس البسطاء، وهو السهل الممتنع. وكم بالحري إذا كان شعره من أكثر الأشعار التي لُحنت وأصبحت أغاني في عالمنا العربي؟!

ولكن مساحة الشعر لم تتسع لطموحات توفيق زياد، فولجَ إلى عالم القصة من باب إعادة إحياء التراث وكتابة قصصه الشعبية من جديد. فسافر من بلدة إلى أخرى يلتقي المستنّين والمعمّرين ومحبي التراث، ويستمع إلى قصصهم ويدونها، ويجري المقارنات بين الروايات المختلفة للحكاية نفسها، ويضيف ويجري التعديلات ويعيد الكتابة. وقد نشر العديد منها في "الجديد". ثم جمعها في كتاب بعنوان "حال الدنيا"، طبع في آن واحد في العراق وفي بلادنا. وبدأ بإعداد مجموعة أخرى وجهز قسمًا منها للطباعة، لكنه لم يكمل هذا المشروع.

يُعتبر توفيق زياد نموذجاً جيداً لاختلاف النقاد حول شعره؛ فمن اعتبر الكلمة بمثابة السيف القاطع، المدافع عن الشعب الفلسطيني، والشعر وعاءاً لخدمة الجماهير، وجد ضالته المنشودة في شعر توفيق زياد. ومن بحث عن النواحي الفنية والجمالية في الشعر الفلسطيني، وجده أقل الشعراء التزاماً بهذه المسألة.

جدير بالذكر أنّ النقاد الذين تعاملوا مع شعر توفيق زياد بموضوعية تامّة قليلون جداً. ولعل من أهم الآراء النقدية ما أورده الناقد عبد القادر القط في كتابه في الأدب العربي

الحديث، من أنّ القارئ لديوان توفيق زياد يحسّ أنه لا يصطنع لنفسه أسلوباً فنياً متميزاً، بل يتذبذب بين أساليب شديدة التباين، ومستويات فنية مختلفة، كأنها ليست نتاج موهبة فنية واحدة، فيحار القارئ، كما يقول عبد القادر القط، أمام هذا التباين، فلا يدري أهو ضعف في الموهبة التي تتوقّد لحظات ما بين حين وآخر ثم تخبو.²

على أنّ هذا التوجّه النقدي الموضوعي لعبد القادر القط يقف منفرداً أمام تيار جارف من النقد الذاتي، كثير الإطراء والإعلاء من قيمة هذا الشعر، جاعلين صاحبه في مصاف الشعراء الثوريين العالميين، الذين يدافعون عن إنسانية الإنسان في كل زمان ومكان.

في معرض تقديمه لكتاب عن الأدب والأدب الشعبي في فلسطين، يتعرض الناقد محمد دكروب لشعر توفيق زياد قائلاً:

"وعندما نأخذ واحداً من دواوين توفيق زياد، نشعر معه رأساً بألفة عميقة، عريقة، حارة. فنحن نقرأ شعراً لا يزال يندى بعرق الشعب الكادح، مشبع بحكايات الشعب وأساطيره وأمثاله وبطولاته، ويغمرك هذا الشعر بسحر أسر هو بالضبط "سحر البساطة" [...] فإذا تساءلنا عن سرّ هذا السحر، فقد نجد بعضه في كون الشاعر منصهراً في جماهير شعبه الفلسطيني، يغرف من نهريه ويصبّ فيه، ويحمل قضيته ومأساته وآماله وصموده، في روحه وفي دمه، ويعرف جيّداً لغة هذا الشعب. وقد نجد بعض هذا السرّ في عشق توفيق زياد للأدب الشعبي الفلسطيني، في استيعابه حكايات هذا الشعب وأغانيه وأشعاره وأمثاله ومختلف ألوان فلكلوره، وفي سعيه الدائم لجمع هذا التراث، ودراسته، ونشره".³

رغم الإطراء الظاهر لشعر توفيق زياد، إلّا أنّ دكروب يلفت النظر إلى الجانب الآخر من شعره، وهو خاصية البساطة الموجودة في هذا الشعر الذي "يندى بعرق الشعب الكادح،

² عبد القادر القط، في الأدب العربي الحديث، ص 120.

³ توفيق زياد، عن الأدب والأدب الشعبي، ص 6-7.

ومشبع بحكايات الشعب". فإن كانت هذه البساطة الشعرية التي يذكرها الناقد دكروب سبباً في تقبّل شعر زياد، فإنّه، بذلك، يؤيّد أن يبقى الشعر الفلسطيني على بساطته ومباشرته وخطابيته، دون الحاجة إلى تحديث الوسائل الفنية. هذا الرأي نجده منسجماً تماماً مع موقف توفيق زياد نفسه حول رسالة الشعر. فزياد يرى أنّ الشعر هو بمثابة السلاح المشهر بوجه الأعداء، لذلك يتوجب على الشاعر أن يبقى ملتصقاً بال جماهير، معبراً عن آلامها وآمالها، كل ذلك بلغة شعبية بسيطة⁴.

لقد كان عز الدين المناصرة في غاية الموضوعية حين قيّم شعراء الأرض المحتلة وفق معايير أدبية موضوعية، بعيدة عن التحيز. يقول المناصرة في معرض تقديمه لديوان توفيق زياد:

"لعل في السنوات الأخيرة وخصوصاً بعد هزيمة 1967 ثلاثة شعراء من الأرض المحتلة هم: محمود درويش، سميح القاسم، توفيق زياد. وقد اعتاد النقاد هذا الترتيب وأحياناً يلحقون بهم سالم جبران كألمع أربعة شعراء في الأرض المحتلة، ويبدو أنّ هذا الترتيب مهم وضروري ومقبول من الناحية الموضوعية إذا وجدنا أنّ درويش قد حقق شرطي الفن والالتزام، أما سميح فهو يراوح بينهما. أما شاعرنا توفيق زياد فيجب أن نقول الحقيقة إنّّه يلتزم بالمضمون التزاماً كاملاً وأشدّ من زميليه، أما الفن فهو أمر ثانوي في شعره، ولا غرو أنّ توفيق زياد هو أقدم زملائه التزاماً بالخط الماركسي، ولعل دراسته من هذه الناحية هي أفضل الوسائل لإنصافه"⁵.

3-1: ثمة خصائص وآليات متكررة قام الشاعر بتوظيفها في خطابه الوطني، أبرزها ما يلي⁶:

⁴ المصدر نفسه، ص 22-24.

⁵ توفيق زياد، الديوان، ص و-ز.

⁶ لشرح مفصّل عن العناصر التحريضية في شعر توفيق زياد انظر: جميل كتاني، "العناصر التحريضية في شعر توفيق زياد"، دراسات وأبحاث في الأدب المحلي، مطبعة الهدى، باقة الغربية، 2012، ص 68-11.

1. توجيه الخطاب إلى كافة الشرائح الفلسطينية في الداخل والخارج، أي أولئك الذين صمدوا في أرضهم، وأولئك الذي شُردوا من ديارهم. وحثّ النازحين والمشرّدين على العودة إلى أرض الوطن. يقول في قصيدة "من وراء القضبان":

سيعود شعبي في ضياء الشمس..

من خلف الحدود

سيعود للطلل المهدّم

يبتنيه من جديد

سيعود للأرض الحبيبة،

للزنابق، للورود

سيعود..

رغم النار والأغلال

خَفَّاقَ البنود⁷.

2. عدم اقتصار الخطاب الوطني على الشعب الفلسطيني، بل امتدّ إلى الشعوب العربية والعالمية، وتماهى مع الإضرابات والمظاهرات المطالبة بالحرية والاستقلال في أقطار مختلفة من العالم، ودعم حركات التحرر العالمية. يقول زيّاد في قصيدة "وثبة الجسر"، مُشيداً بانتفاضة الشعب العراقي ضد الاستعمار:

أَصِخْ السَّمْعَ للنسيم السَّاري

يلثمُ الكَوْنَ مُؤِذِنًا بالهَّارِ

ضاقَ بالسَّيْرِ صدرُهُ فأبَاحَتْ

شفتاهُ فضيحةَ الأسرارِ

أَصِخْ السَّمْعَ!!.. ها هنا وشوشات

وحديثٌ يدور في كلّ دارِ

⁷ المصدر نفسه، ص112.

وصرير الأبواب-شَقَّقَهَا العتقُ-

تعالى في هداةِ الأسجارِ

أدر الطرف.. أفقُ بغدادَ فيه..

سُحُبٌ حُبلى وبلها من نارٍ⁸.

3. توظيف الطبيعتين، الساكنة والمتحركة على حد سواء. واستغلال خصائصهما من أجل التعبير عن الصمود والمقاومة؛ كقوة التحمل عند الصُّبَّار والزَّيتون، وقوة التأثير ونقل الرسائل والأخبار عند السُّحُب والرياح. يتكرر ذكر الزيتون، مثلاً، تعبيراً عن الصمود والبقاء. يقول في إحدى القصائد:

لأنني لا أحيكُ الصوف،

لأنني كل يوم عرضةٌ لأوامرِ التَّوقيف

وبيتي عرضةٌ لزيارةِ البوليس

للتفتيش، "والتنظيف"،

لأنني عاجز أن أشتري ورقاً،

سأحفرُ كل ما ألقى،

وأحفرُ كلَّ أسراري،

على زيتونة

في ساحة الدَّار⁹.

4. اندماج الهوية الفردية بالهوية الجماعية، من خلال التحدث بضمير الجماعة، خاصة حين توجيه الخطاب إلى المتظاهرين في الشوارع والميادين، مطالبين بالحرية والعدل والمساواة، أو الحديث إلى كافة شرائح المجتمع، مطالباً إياهم بالعمل معاً نحو حياة أفضل، كما في المثال الآتي:

⁸ المصدر نفسه، ص 205.

⁹ المصدر نفسه، ص 288.

تعالوا أيها الشعراء
نزرع فوق كل فمٍ
بنفسجَةً.. وقيثارة
تعالوا أيها العمالُ
نجعلُ هذه الدنيا العجوزَ
تعودُ نَوّارة
تعالوا أيها الأطفالُ
نحلُمُ بالغدِ الآتي
وكيفَ نصيّدُ أقماره
تعالوا كلّكم.. فالظلم يبنى
بعدَ دهرٍ طالٍ مشواره
وأنتم.. قد ورثتم
كلّ هذا الكون
روعتُهُ وثروّتُهُ وأسْراره¹⁰.

5. توظيف الغناء والأناشيد من أجل التحريض والصمود وبثّ روح التحدي والمقاومة. وقد بيّن زياد أهمية توظيف ذلك في كتابه صور من الأدب الشعبي الفلسطيني، بقوله إنّ ذلك في غاية الأهمية لتربية الأجيال على تقاليد إنسانيّة ووطنية¹¹. يقول في إحدى القصائد:

ألفُ شيطانٍ يُغَيّي في فُؤادي.. ويُبَيّي
إنّها فرحةٌ عمري.. فرحةٌ أكْبُرُ ميّي..

¹⁰ المصدر نفسه، ص 242-243.

¹¹ توفيق زياد، صور من الأدب الشعبي الفلسطيني، ص 16.

من أزاميلي، وأحلامي، وما يصنَعُ قَيَّ¹².

بناءً على ما تقدم، تحمل اللغة الشعرية لدى توفيق زياد طاقة قوية¹³، يعبر من خلالها عن مشاعره وأحاسيسه القوية. فاللغة في شعره قوية ومباشرة، وهي في نفس الوقت منحازة وليست بريئة¹⁴، لأنها تحمل فكره ومعتقده، حتى تصبح اللغة هي ذات المؤلف.

لهذا كله، جاءت لغة الشاعر تحريضية، أو حماسية، كما يسميها الناقد عبد القادر القط¹⁵، تحت على الاستنهاض وعدم الخضوع والاستسلام. كما أننا نجد أشعاره أداة توصيل لأفكاره السياسية والأيدولوجية، ومطابقة للواقع الذي يعيشه. فالأدب الملتزم، كما يراه الناقد عز الدين إسماعيل، هو الذي يجعل من قوة التعبير الفني وسيلة فعالة في تنبيه النفوس إلى ما هي رازحة فيه، وتوعيتها بواقعها ومصيرها¹⁶.

السؤال الذي يسأل هنا: كيف عبّر الشاعر عن رفضه ومقاومته للمحتل؟ وما هي خصائص القصيدة الوطنية لديه؟

يمكن القول إن غالبية القصائد عند توفيق زياد هي ذات نبرة وطنية مباشرة، فلا غرابة أن نجد قصائد كاملة تندرج تحت هذا التصنيف، بحيث تكون القصيدة كلها مجتدة

¹² توفيق زياد، الديوان، ص 163.

¹³ حول قوة تأثير اللغة وأيدولوجيتها في العمل الأدبي، انظر: عز الدين إسماعيل، "أيدولوجيا اللغة"

فصول، مجلد 5، عدد 4، القاهرة، 1985، ص 37-50.

¹⁴ عبد القادر القط، مصدر سابق، ص 97.

¹⁵ المصدر نفسه، ص 98.

¹⁶ انظر: عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص 374. انظر كذلك: غالي شكري، أدب المقاومة،

ص 352؛ حسين مروّة، دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي، ص 290-294؛ أحمد عنتر مصطفى،

كائنات وتربة: قراءات إبداعية في الشعر العربي، ص 62؛ لطفي منصور، "القضية والوطن والشعب في

شعر محمود دسوقي" مرايا في النقد (إعداد وتقديم محمود غنايم)، دار الهدى للطباعة والنشر، كفرقرع،

2000، ص 154-155.

لتحريض الشعب والجماهير على مقاومة العدو، ونيل حقوقها المسلوبة بالقوة. من أهم المؤشرات للخطاب الوطني عند زياد هي ما تحمله عناوين القصائد من قوة وحماسة.

4-1: عناوين القصائد لدى زياد تتسم بحدّتها وقوّتها، ذلك أن العنوان في العمل الأدبي "يحدد البؤرة التي منها يطل القارئ على الأثر، لهذا أولاه النقد الحديث أهمية، وأدرجه ضمن التقديم والإهداء والتنبيه، فعدها مداخل أولى ممكنة للنظر في النصوص واستكناه أبعادها"¹⁷. فلو أخذنا عينات من عناوين قصائده لوجدناها تحمل دلالة وطنية تحريضية، منسجمة في ذلك مع القصيدة نفسها. من ضمن هذه العناوين نأخذ ما يلي:

- 1- عن الرجال والخنادق¹⁸
- 2- إلى عمال موسكو¹⁹
- 3- المناشير المحترقة²⁰
- 4- هنا باقون²¹
- 5- ادفنوا أمواتكم وانهضوا²²
- 6- تعالوا²³
- 7- ضيّقوا الحلبة²⁴

نلاحظ من العناوين السبعة أعلاه مدى قوّتها وحدّتها، فهي تتميز بوجود العديد من الكلمات المستمدة من المعجم العسكري/ الحربي، كما هو الحال في العنوان الأول

¹⁷ أحمد الجوّ، شعريّة وقضيّة: دراسة في شعر معين بسيسو، ص 11.

¹⁸ الديوان، ص 47.

¹⁹ المصدر نفسه، ص 11.

²⁰ المصدر نفسه، ص 35.

²¹ المصدر نفسه، ص 197.

²² المصدر نفسه، ص 217.

²³ المصدر نفسه، ص 242.

²⁴ المصدر نفسه، ص 272.

(الخنادق)، والعنوان الثالث (المناشير المحترقة)، والعنوان السابع (الحلبة). كما أنها تشتمل على أفعال الأمر، كما هو واضح في المثالين السادس والسابع، من خلال الفعلين (تعالوا/ ضيقوا). وفي المثال الخامس، الذي يشتمل على فعلي أمرهما (ادفنوا/ انهضوا). فهذان الفعلان الأخيران متضادان، لأن فعل الدفن يوحي بالسكون والاستقرار والموت، بينما فعل النهوض يوحي بالحركة والفاعلية والحياة، وكأن الشاعر يستنهض الجماهير ويحثها على التحدي والصمود. وإجمالاً، فإن هذه العناوين المشتمة على أفعال الأمر من شأنها أن تشير إلى خطابية هذه القصائد، وإلى دور الشاعر في حث الناس وتحريضهم، وتوجيههم، وشحنهم بالطاقة اللازمة من أجل الصمود والثبات على الموقف²⁵. هذا الثبات نستطيع تلمسه من العنوان الرابع "هنا باقون"، فهو يحمل دلالة زمكانية واضحة، بحيث تشير كلمة "هنا" إلى المكان، فيما تشير كلمة "باقون" إلى الزمان. فالعنوان، بهذه الصياغة، مشحون بتحريض الجماهير على البقاء والتشبث بالأرض والوطن، لا سيما أنه يحمل طابعاً جمعياً لا فردياً، من خلال كلمة "باقون" التي تشير إلى الـ "نحن"، لا إلى "الأنا/ الشاعر".

من الخصائص التي تتميز بها العناوين السابقة أن التحريض فيها لا يقتصر عليها، أي على العناوين، وإنما ينسحب على القصيدة بأكملها. فلو أخذنا، مثلاً لا حصراً، العناوين الأولين: "عن الرجال والخنادق" و "إلى عمال موسكو"، نجدتهما بيداً بحرفي جر. لو نظرنا إلى حرف الجر "عن" مقترباً بالجملة "عن الرجال والخنادق"، لما كان التخمين صعباً من أن الشاعر سيخبرنا عن الرجال وعن الخنادق. ولكن السؤال يبقى: عن أي نوع من الرجال والخنادق سيحدثنا الشاعر؟ هل هم أولئك الرجال الذين يشير إليهم العنوان، أم أنهم خلاف ذلك؟ هذا ما سنراه في تحليلنا للقصيدة فيما يلي:

²⁵ يرى الناقد نبيه القاسم أن التعبير المباشر في قصيدة زياد، كان الهدف الأول والأخير منه، التحريض وبث الحماس لدى الجماهير للتحرك وتغيير الواقع. انظر: نبيه القاسم، الحركة الشعرية الفلسطينية في بلادنا، ص 118-119.

(1)

يا غابة من الرجال الشّعث والبنادق

يا أفقا يموّج بالنشيد، بالبيارق

تحية السلاح!!

للدم، للتراب، للجراح

للّهيب الذي أتاكَ بالسلام

يا خنادق!

اليوم يا جزائر

تنطفئ الحرائق

وتملأ الأفراح بالدموع الأعين الغضاب²⁶.

الأعين المحمرة التي تسلحت

بألف حربة وألف ناب

(2)

سبع سنين

لم تذرفي الدموع يا جزائر

فلم يكن لديك لحظة واحدة

توهب للدموع

تضيق، تنقضي بلا كفاح

بدون أن يلتهب التراب في

ملحمة الصباح

وقّرت كل ما لديك من دموع

ليوم تنبت الورود فوق

²⁶ الديوان، ص26.

شفرة السلاح

(3)

حق أضاء وجهك الأحمر يا حرية

كلّفنا مليون ثائر.. ضحية

فلتوقد الأعراس

في رأسك الأشمّ يا أوراس

وليمرح الأطفال

في ظلك الوريث يا سواعد الأبطال

لم ينته الكفاح

يا إخوتي.. لم ينته الكفاح

وغابة الرجال الشعث والبنادق

لن تقذف السلاح

لكنها

تبدل

الخنادق

لاحظ أنّ القصيدة أعلاه حماسيّة ومتوقّدة، يحيّي فيها الشاعر شعب الجزائر، لما يُبديه من بطولة ضد المستعمر الفرنسي، المغتصب لبلاده وترابه. فهو يحيّي الرجال الذين صنعوا الثورة، وقاوموا مقاومة الأبطال. هذا ما نلاحظه في الأبيات الثلاثة الأولى، التي تشكّل مطلع القصيدة. فهو مطلع خطابي، وذلك من خلال أداة النداء "يا"، المكرّرة مرتين. كما أنّ جملة "تحية السلاح" تشير إلى هذه الخطابية أيضا. فالتحية توجي بالقرب والتواصل بين الناس. لكنها هنا تحية السلاح، وليست تحية السلام، كما هو دارج على الألسن. وهذا يشير، بطبيعة الحال، إلى إعجاب الشاعر بهذه المقاومة التي أبدّاها الرجال، وإلى تعاطفه معهم وتحريضه لهم. كما أنّ تصويره للرجال يشير بوضوح إلى طبيعتهم. فهو يشبههم بالغابة التي ترمز، من ضمن ما ترمز، إلى الكثرة، والقوّة، والرغبة، في آن معاً. فالغابة تحتوي على عدد

لا يحصى من الأشجار، كما أنها تحوي بداخلها الحيوانات المفترسة، وعلى رأسها الأسود، التي تتصف بالقوة والشجاعة والبطش. الصفة الأخرى التي يلصقها بالرجال هي أنهم رجال "شعث"، أي رجال ذوو شعر مغبّز ومتلبّد، بسبب المقاومة والشجاعة التي يبذلونها في ظل ظروف صعبة وطبيعة قاسية.

ويأتي السطر الثاني متممًا للسطر الأول في تحريضه وقوّته، فهو يخاطب الأفق الذي يُموج بالنشيد والبيارق. فالنشيد والرايات هنا إشارة إلى النصر والغلبة، هذا النصر الذي يملأ الأفق الواسع. لذلك، يحَيِّهم الشاعر بتحية السلاح، تعبيرا عن افتخاره بهم، وإعجابه بقوتهم وصمودهم، مقدّرًا الدور الذي قام به السلاح من أجل النصر، لأنه يقول في نفس المقطع: "للّهب الذي أتناك بالسلام"، أي أن الحرب هي التي فرضت السلام والانتصار. بعد كل ذلك، تجدر الإشارة إلى الكم الكبير من الكلمات الحماسيّة، المستمدّة من أجواء المعركة والقتال، يظهر ذلك في المقطع الأول خاصّة، والقصيدة عامّة، وذلك من خلال مفردات مثل: الدم/ الجراح/ اللهب/ الحرائق/ الأعين الغضاب/ تسلحت/ حربة/ ناب/ كفاح/ ملحمة/ شفرة السلاح/ نائر/ ضحية/ سواعد الأبطال.. إلخ.

إجمال:

يتميز شعر توفيق زياد بالخطاب الوطني المباشر القائم على التحريضيّة الواضحة، ضد قوات الاحتلال، وضد قوى الظلم والاستعباد، سواء على الصعيد المحلي أو الصعيد العالمي. من خلال استعراضنا لبعض القصائد المقاومة، وجدنا أنّ الشاعر يخاطب جميع الأطراف المغلوبة، سواء أكانت أفرادًا أم شعوبًا. رأينا ذلك من خلال تحريضه للشعب الفلسطيني، لا سيما أولئك الذين يتظاهرون في الشوارع ضد الاحتلال، أو أولئك القابعين في السجون. كما أنه يحرض الفلسطينيين الموجودين في الشتات، من أجل العودة إلى وطنهم.

إضافة لذلك، فإنّ تحريضه قد طال كافة الشرائح الاجتماعية المظلومة في كافّة أنحاء العالم، كالعمال في موسكو، والجماهير المطالبة بالحرية في كوبا، والشعوب الإفريقية، والشعوب العربية على امتداد الوطن العربي.

في مجال الشكل والأسلوب، رأينا أنّ الشاعر يوظف العناوين التحريضية الهادفة، هذه العناوين التي تميزت بحدّتها وقوّتها، وانبثاقها، في كثير من الأحيان، من المعجم العسكري/ الحربي، ووروها بصيغة الأمر، مما يجعلها تحمل دلالة خطابية واضحة. كل ذلك من أجل تحريض الشعب والجماهير لمقاومة الظلم والاحتلال.

إضافة لذلك، قام الشاعر بتوظيف عدة خصائص من أجل التحريض والمقاومة، كاستغلال الخواصّ الكامنة في الطبيعة بنوعها: الساكن والمتحرك، كقوة التحمل والصمود عند شجرة الزيتون مثلاً، أو قوة التأثير والتنقل عند السحب والعواصف والرياح. لقد قام الشاعر بأنسنة هذه الطبيعة، فتعامل معها باعتبارها عنصراً مقاوماً ومحرّضاً، تشترك في عملية التحريض والصمود، أسوة بالشعب الفلسطيني.

وجاء اندماج الهوية الفرديّة بالهويّة الجماعيّة باعتباره شكلاً آخر من أشكال الخطاب الوطني لدى الشاعر. ظهر ذلك من خلال حديثه بضمير الجماعة، حتى يكون أقرب إلى الشعب، لا سيما تلك الفئات المحتشدة في الشوارع، مطالبة بالحرية، والعدل، والمساواة، ورفض الاحتلال.

كما أنه وظف الغناء من أجل التحريض، وبث روح المقاومة والصمود، مستغلاً بذلك ما يوحي به الغناء من فرحة وسرور وتفاؤل. لقد رأينا أنّ أهم ما يميز به الغناء في قصائده، أنه مستمد من التراث المحلي الفلسطيني، بهدف إحياء هذا التراث والاعتزاز به. لأنّ ذلك من شأنه أن يزيد اعتزاز الإنسان الفلسطيني بهويّته وقوميّته، وهذا، بحد ذاته، يعتبر عنصراً تحريضياً مقاوماً.

ببليوغرافيا

- إسماعيل، عز الدين. الشعر العربي المعاصر. بيروت: دار العودة، 1981.
- إسماعيل، عز الدين. "أيدولوجيا اللغة" فصول. مجلد 5، عدد 4، القاهرة، 1985، 37-50.
- في الذكرى الأربعين لرحيل الفارس: توفيق زناد. الناصرة: بلدية الناصرة- مطبعة الحكيم، 1994.
- الجوّ، أحمد. شعريّة وقضيّة: دراسة في شعر معين بسيسو. تونس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999.
- زباد، توفيق. ديوان توفيق زباد. بيروت: دار العودة، 1970.
- زباد، توفيق. صور من الأدب الشعبي. عكا: مطبعة أبو رحمون، 1994.
- شكري، غالي. أدب المقاومة. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1979.
- القاسم، نبيه. الحركة الشعرية الفلسطينية في بلادنا. كفرقرع: دار الهدى للطباعة والنشر، 2003.
- القط، عبد القادر. في الأدب العربي الحديث. القاهرة: دار غريب، 2001.
- كتاني، جميل. اللغة التحريضية لدى توفيق زباد. باقة الغربية: أكاديمية القاسمي، 2011.
- كتاني، جميل. "العناصر التحريضية في شعر توفيق زباد" دراسات وأبحاث في الأدب المحلي. باقة الغربية: مطبعة الهدى، 2012، 11-68.
- مصطفى، أحمد عنتر. كائنات وترية: قراءات إبداعية في الشعر العربي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994.
- مرّوة، حسين. دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي. بيروت: دار الفارابي، 1976.
- منصور، لطفي. "القضية والوطن والشعب في شعر محمود دسوقي" مرايا في النقد. (إعداد وتقديم محمود غنايم). كفرقرع: دار الهدى للطباعة والنشر، 2000، 154-155.